الفصل الأول

إنه أنا .... وأنت أيضًا

عندما يرزقك الله أربعةً من الأبناء مثلي ، أكبرهم شاب في الثامنة عشرة من العمر ، وأوسطهم بنت في الرابعة عشرة ، وأصغرهم ولد في العاشرة ، وبنت في الخامسة ، فأنت على أعتاب الجنون على ما أظن ، ولو كانت خطواتك أسرع مني ، وعضلات صبرك قد أعلنت استسلامها مبكرًا ، فأنت بالتأكيد لن تقرأ هذه الكلمات - فالموتى لا يقرؤن - .

ولكي أثبت لك صدق كلامي، دعني أعطيك عنهم وصفًا دقيقًا:

ابني الأكبر واسمه رامي ، وهو لعمري اسم على مسمى كما يقولون، فإنه يرميني بكل الفواجع والمصائب ، ابتداءً من طريقة تصفيف شعره التي تشككني في انتمائنا لعالم البشر ، ومع كل مرة أراه فيها أعاود النظر في بطاقتي الشخصية لأتأكد من كوني إنسانًا لا ديكًا كما يعتقد هو ، وهو ما يحاول أن يُظهره بعُرْف فوق رأسه ، مرورًا بعد ذلك بملابسه التي لا تقصر في توثيق صلته بعالم اللاإنسان حتى أصدقاءه ومعارفه

بخوائهم النفسي الذي يجعلك تبكي على زمان قد ولى ، كان الشباب فيه شبابًا يعرفون واجبهم نحو أنفسهم وأوطانهم ، نهايةً بتعليمه الذي لا طائل منه ، فهذا هو عامه الأول في معهد من تلك المعاهد التي لا أستطيع تذكر اسمها فضلاً عن معرفة التخصص الذي يدرسه فيها ، وقد دخل هذا المعهد بعد حصوله على مجموع رديءً في السنة النهائية من المرحلة الثانوية ولا يخفى عليكم ما أصابني وقتها من إحباط ، وأنا الذي لم أعرف إلا التفوق سبيلاً في حياتي .

أما عن حياته في تلك الاستراحة المسماة بيتنا ، فهي مقسمة إلى قسمين الأول : الوقت الذي يقضيه معنا وهو عبارة عن مشاكل ومعارك مع أخيه وأخته وإن تبقى له بعض الوقت ففي اتهامنا بأننا السبب في كل مشاكلنا العائلية ، وأننا بإهمالنا قد ساعدنا على ضياعه – الذي نرميه به – ، وأننا السبب في المشاكل التي سوف تحدث لأخويه من بعده ، وأننا ... وأننا ، حتى أنني لا أستبعد أن يجعلنا السبب في أزمة عمل الشباب والبطالة المتزايدة على مستوى العالم .

والثاني : وقته على الإنترنت أو بالأصح مع الإنترنت الدليل الحي على كونه إنسانًا متحضرًا كما يعتقد هو وأصدقاؤه ، وإن سألته

ماذا يفعل كل هذا الوقت فإنه يجيبني بابتسامة ساخرة تنزوي على طرف فمه ويقول كمن يعطي درسًا لطالب لا أمل فيه : "عندك فيس بوك؟!" وبالتأكيد أجيبه أن لا فيُذهِب وجهه عني ويقول "لن تفهم إذن ما فائدة الإنترنت" فأجيبه مدافعًا عن كرامتي التي انتهكت " أنا أستفيد منه في عملي ، لا لأضيع به وقتي مع أشخاص لا هدف لهم في الحياة"

فيهز رأسه قائلاً "وما الفارق ؟! أنا أستفيد أيضًا من الحديث مع هؤلاء الأشخاص ، وبالمناسبة ، ما فائدة أن يكون لنا هدف في الحياة ؟" يقولها وهو ينظر إليّ ببراءة أو لنقل ببلاهة شباب هذه الأيام فأتركه وأرحل لئلا تقودني المناقشة معه إلى التفكير الجاد في قتله ، وأتمتم مع نفسي :

لقد أسمعتُ لو ناديتُ حيًا ولكن لا حياةَ لمن أنادي

أما عن ابنتي الوسطى فهي أفلاطون البيت ، لا تراني إلا وتمطرني بأسئلة فلسفية معقدة ، بدايةً من سؤالها عن فائدة عملي الذي يستهلك وقتي بشكل مبالغ فيه ، نهايةً بالسؤال عن فائدة زواجي من أمها ، وهي لا ترانا كزوجين سعيدين ، أو كعصفورين حالمين ، أو حبيبين عاشقين،

وإنما كشخصين قد تزوجا مصادفة أو أن أهلي قد أكرهوني عليها ، أو العكس ، مبررة بذلك ما تراه من جفائنا في معاملاتنا مع بعضنا ومعهم، وتقول لو وصل زواجي لما أراه منكما فلن أتزوج أبدًا .

ولابد أنك قد تخيلت مظهرها بتلك النظارة على وجهها ، وبعض الإيماءات التي تظهر امتعاضها من كل شيء ، وهي كثيرة القراءة في تلك القصص التي تملأ عقلها بالفراغ ، ومع كل محاولات أمها للاقتراب منها تزداد ابتعادًا عنها يومًا بعد يوم ، وتنغلق على نفسها ولا تود التكلم عن أي شيء يخصها أو حتى يخصنا ، وجعلت من غرفتها ملاذًا آمنًا تلجأ إليه هربًا من تلك الكائنات المزعجة التي هي أنا وأمها وأخوتها بالطبع . عبثًا حاولنا إخراجها للعالم لكنها لا ترى فائدة من كل ذلك فجلوسها بمفردها يعطيها إحساسها بنفسها ، أما مع الآخرين فهي في صراع نفسي بالغ ، ولولا تفوقها وحبها للدراسة لواجهتنا مشاكل كبيرة في إقناعها بالذهاب للمدرسة .

أما ابني الأصغر فهو ألطفهم وأظرفهم ، أحبه أنا وأمه لما لا نجده من عناء في التعامل معه مطيع هادئ لا تكاد تسمع منه ما شكوى أو تذمرًا يومًا ما ، متفوق بشكل رائع وذكي جدًا ، لكن ما يؤرقني هو

حبه المبالغ فيه للكرة ونجومها وضياع الوقت في البحث عن أخبارهم ، ومحاولة تقليدهم في كل ما يفعلونه ويلبسونه ، وأخشى أن يوثر ذلك على مستواه الدراسي .

إن حدثته عن أي شيء في الكرة ومجالاتها تجده مثقفًا لا يُشق له غبار ، وإنني لأتعجب من أين يحصل على كل تلك المعلومات ، وكيف يحفظ أسماء اللاعبين والأندية والمدربين .. حتى أنني لن أتعجب لو أخبرني بأسماء الحاضرين من الجمهور فردًا فردًا في مباراةٍ ما .

وابنتنا الصغرى خمس سنوات .. عندما كانت صغيرةً كنت أسميها فاكهة البيت وكنت أدللها ، وأشتري لها ما تريد وكأنني كنت أعوض ما أراه من أبنائي الكبار حتى شعرت بغيرتهم منها ، فكنت أؤنبهم على ذلك ، وعبثاً حاولت إبعاد تلك الفكرة عن عقولهم وأنني لا أفرق بين أي واحد من أبنائي ، ولا أفضل الصغيرة عليهم ، لكن الواقع أنها كانت أقل فرد يسبب لي العناء في البيت ، والآن أنا أسميها مشكلة البيت فهي عنيدة إلى أقصى درجة ناهيكم عن تبولها اللاإرادي ، لكنني لا أجد ذلك مشكلة كبيرة فقد عانى من ذلك أخوها الأكبر أيضًا .

وهكذا تمضي حياتي تنساب رقراقة كقطرات ماءٍ نديّ على أوراق زهرة ناعمة ملساء – ألا تتفقون معي في ذلك ؟ - ، فلا مشاكل ولا خلافات ، ومع من أختلف ؟! فأنا لا أعرف أحدًا في بيتي . زوجتي في وادٍ وأنا في وادٍ آخر .

أما أبناؤنا فهم خارج محيط تأثيرنا ، خارج الغلاف الجوي لبيتنا ، حيث لا توجد جاذبية بيتية ، لو استطاع ابني الأكبر أن يجد له مكانًا بعيدًا عنا لسارع في الانتقال إليه ، وابنتنا الوسطى تتمنى أن تسابق الزمان لتجد فارس أحلامها الذي يأخذها لدنيا غير دنيانا – بشرط أن يكون فارسها ليس كأبيها ، وبالطبع لن تكون كأمها - ، وابننا الأصغر معنا بعض الوقت ومع الكرة أكثر الوقت ، وبين كل هؤلاء أعيش دوامتي أنا وزوجتي .

أمَّا عن عملي فأنا مثلكم تمامًا أو بالأحرى مثل كل أب تدور به عجلة الحياة حتى أنه لينسى كيف يوقفها ، ولو أراد أن يفعل فإنه يكتشف وقتها أنه نسي مكان مكابح الإيقاف لتلك العجلة أو أنه ليس لها مكابح من الأصل ، وعندها ييأس ولا يجد حلاً سوى أن يكمل الدوران منتظرًا نهايته الآتية لا محالة ، أو معجزة تهبط عليه من السماء،

وتستمر العجلة في الدوران. فنحن لسنا في عصر المعجزات .

عجلة العمل تدور وتتحرك ومع تعبها البالغ إلا أنها تُحتمل لما تسبغه على الإنسان من مناصب مرموقة ، وتقدم وارتقاء يزيد من احترامه لنفسه وإكرامًا لحياته بتوفير حياة طيبة له ولأسرته . فأنا مدير لشركة خاصة ودخلي يضمن لي أمانًا في حياتي وحياة أبنائي .

أما عن البيت فالأمر أصبح مختلفًا ، فمع مرور الوقت أشعر أنني أبتعد عن أبنائي ، والفجوة تزيد بيننا وفي كل مرة لا أكون فيها أبًا أشعر أنني أتنحى جانبًا ولم أعد مدركًا كيف أكون أبًا ، كيف أمارس تلك الأبوة ، وأتحدث أنا وزوجتي كثيرًا عن أوضاعنا ، وعن أبنائنا وينتهي النقاش بيننا بأنه ليس هناك حل ، وهذا الزمان مختلف عن زماننا ، ولابد أن نؤمن بالواقع ونعيشه حتى لا نهلك أنفسنا .

إلا أنني لم أكن راضيًا عن حياتي تلك وكنت أنتظر حدوث تلك المعجزة التي تجعلني أبًا لكي لا أتنحى جانبًا. وقد حدث .....

وحدثت المعجزة

نعم لقد حدثت المعجزة بالفعل عندما قابلت ذلك الرجل الملهم والمعلم البارع الذي جعلني أشعر بقمية نفسي من جديد وأحب زوجتي وأبنائي .

لقد صرت أبًا ولن أتنحى جانبًا

ولهذا قصة .....

من قصيدة " كن أبًا ولا تتنح جانبًا"

أفاق الزوج وقام أخيرًا   لمــا أتى الحقُّ ورآه

كان المــوت منه قريبًا   لكــنَّ الله نجَّـــــاه